صفاتُ الأصواتِ من اللغةِ إلى التّصوفِ

قراءة في الفتوحاتِ المكيةِ

characteristics of sounds، From language to mysticism

A reading in the Meccan conquests

م.د. علاء صالح عبيد الأسدي

كلية العلوم الإسلامية – جامعة وارث الأنبياء

Dr. Alaa Saleh Obaid

University of Warith Alanbiyaa/ College of Islamic Sciences

alaa.alasady83@gmail.com

الملخص

ارتكز البحث على إيجاد مقاربة لغوية للصفات الصوتية بين علماء اللغة (قدماء ومحدثين) وعلماء التجويد من جهة وبين ابن عربي (٦٣٨هـ) من جهة أخرى، وكيف تعامل ابن عربي مع الصفات وهل وافق الأصواتيين أو خالفهم في استعمال مصطلح الصفات، ومن ثم الوقوف على نموذج لصفات أصوات التفخيم ومخارجها، وكيف تناولها في الدرس والتحليل، وما علاقتها بوحدة الوجود عنده؟

وإلى أي العوالم تنتمي؟

وكل هذه الأمور تكفل البحث بالإجابة عنها.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الدلالة، الصوت، صفة التفخيم، التّصوفِ.

ABSTRACT

The research focused on finding a linguistic approach to phonemic qualities between linguists (ancient and modern) and intonation scholars on the one hand، and Ibn Arabi on the other، and how Ibn Arabi dealt with adjectives and whether phoneticists agreed or disagreed with them in using the term adjectives، and then standing on a model for the characteristics of amplifying sounds.

And its exits، and how he dealt with them in study and analysis، and what is their relationship to the unity of existence with him، and to which worlds they belong?

and these matters ensure the search for an answer to them.

Keywords: Language، semantics، sound، exaltation، linguists.

المقدمة

الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع، فطر الأجناس البدائع، وأتقن بحكمته الصنائع، لا تخفى عليه الطلائع، ولا تضيع عنده الودائع، جازي كل صانع، وراحم كل ضارع، ومنزل المنافع، والكتاب الجامع، بالنور الساطع، وهو للدعوات سامع، وللكربات دافع، وللدرجات رافع.

ثم الصلاة والسلام على البدر الطالع، والنجم اللامع، محمد وآله الذين هم للعلم ودائع.

أما بعد:

فقد نال التصوف عناية واهتمام كثير من الدراسين (عربا أو غربيين) لتراث العرب الإسلامي، وكان لابن عربي الحظوة الكبرى والصدارة في هذه العناية، وذلك بحكم ما قدمه في مؤلفاته من فكرة عامة وشاملة عن التصوف وكيف تطور حتى غدا علما يعرف بـ(علم الباطن)، وتكمن سبب العناية بالتصوف عامة، وبابن عربي خاصة بجملة من الأسباب منها ما هو متعلق بالصوفية،ومنها ماهو متعلق بابن عربي وأفكاره ونتاجه،ومنها متعلق بالدارسين والمهتمين بالتراث الصوفي أنفسهم، وكان السبب في اختيار كتاب (الفتوحات المكية)؛ لأنه يمثل أكبر موسوعة صوفية وما يحتويه من غزارة موضوعات وأفكار، فهو يمثل مرحلة النضج في المؤلفات الصوفية، وربط ابن عربي في فتوحاته بين الحروف وأسرارها من جهة، وبين وحدة الوجود من جهة أخرى، وكانت دراسته للصفات الصوتية ليس من أجل الصفات لذاتها وإنما من أجل توظيفها في غاياتهم ودلالاتهم الصوفية، وقد وسم البحث بـ(**صفات الأصوات من اللغة إلى التصوف قراءة في الفتوحات المكية**) وفرضت المادة البحثية المتوافرة أن يكون البحث مقسما على مبحثين، إذ ضمّ المبحث الأول الحديث عن صفات الأصوات عند اللغويين، وعند علماء التجويد، فالمحدثين، ثم موضوع التفخيم لغة واصطلاحا مرورا بعلماء اللغة، ثم بعلماء التجويد، فالمحدثين، وذكر المصطلحات المرادفة للتفخيم، وضم المبحث الثاني الحديث عن الصفة الصوتية عند ابن عربي وخصائص الدرس الصوتي عنده، والصفات المخرجية والتمييز بين الصفات المخرجية والصفات الصوتية والمرجعيات التي ساعدت ابن عربي في إيجاد تقسيمات متعددة لأصوات اللغة وصولا إلى مخارج أصوات التفخيم وصفاتها والتي اخترنا منها (الصاد والضاد والطاء والظاء) ثم انتهى البحث بخاتمة تضمنت نتائج لخصت ما توصل إليه البحث.

المبحث الأول:

صفات الأصوات

إنّ الناظر في كتب علماء العربية القدماء منهم والمحدثين سيجد أنهم قد جعلوا للصفة الصوتية نصيبا من الذكر؛ لما تتمتع به من أهمية كبرى في ميدان الدراسات الصوتية للتمييز بين صوت وآخر، وإذا ما اجتمعت صفة الصوت مع مخرجه فسيكون للصوت كيان مستقل عن بقية الأصوات، ومن ثم يقوم بأداء واجباته في داخل الكلمة الواحدة أولا ثم الكلام عامة

ثانيا، وإذا كانت أهمية معرفة مخارج الأصوات تتجلى في تحديد النقطة المعينة لإنتاج الصوت فإنَّ أهمية معرفة صفات الأصوات تتجلى في تمييز تلك الأصوات بعضها عن بعض، ولا سيما الأصوات المشتركة في المخرج (ابن الأثير، ٢٠١٧، ص٧٠)، فصفة الصوت كيفية عارضة له عند حدوثه في المخرج، وتتميز بذلك الأصوات المتحدة بعضها بعض (برجشتراسر،١٩٩٤، ص٧٠) يقول الداني: ((أعلموا أنَّ قطب التجويد وملاك التحقيق معرفة مخارج الحروف وصفاتها التي بها ينفصل بعضها من بعض وإن اشترك في المخرج)) (الداني، دت، ص ١٠)، فمعرفة المخارج وحدها لا تكفي لتمييز الأصوات فلا بُدَّ من معرفة الصفات أيضا، يقول مكي ابن أبي طالب ت (٤٣٧ هـ): ((واعلم أنه لولا اختلاف الصفات في الحروف لم يفرق في السمع بين أحرف من مخرج واحد، ولولا اختلاف المخارج لم يفرق في السمع بين حرفين أو حروف على صفة واحدة)).

وحدد سيبويه (١٨٠هـ) الفائدة من معرفة صفات الأصوات بقوله: ((وإنَّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك)) (سيبويه، دت،ص ٤٣٦)، ويقول أحد علماء التجويد في فائدة معرفة الصفات: ((اعلم – وفَّقك الله – أنَّ هذه الصفات المذكورة لها فائدتان: الأولى: تمييز الحروف المشاركة، ولولاها لاتحدت أصواتها ولم تتميز ذواتها... فهذه إحدى فائدتي الصفات، وهي تمييز الحروف المشتركة في المخرج والفرق بين ذواتها. ولها فائدة أخرى وهي تحسين لفظ الحروف المختلفة المخارج)) (المرادي، ٧٤٩هـ، ص ٥٢).

واتبع القدماء مسارات لتمييز الأصوات بعضها من بعض، وكان التقابل واحدا من أهم تلك المسارات (الأسدي، ٢٠١٤، ص ٧٢)، ومن ذلك ما قاله الخليل في حديثه عن الهمزة: ((مهتوتة مضغوطة؛ فإذا رفّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف)) (الفراهيدي، دت، ص٥٢) فهو يقابل بين الهمزة، والياء والواو والألف وكذلك قوله: ((فلولا بحة في الحاء لأشبهت العين... ولولا هتة في الهاء... لأشبهت الحاء))؛ لتقارب مخارجها، ويقول سيبويه: ((لولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا، والظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنَّه ليس شيء من الحروف من موضعها غيرها))، ويقول مكي بن أبي طالب: ((ولولا الهمس الذي في السين لكانت زايا، وكذلك لولا الجهر الذي في الزاي لكانت سينا، إذ قد اشتركا في المخرج والصفير والرخاوة والانفتاح والتسفل، وإنَّما اختلفا في الجهر والهمس لا غير، فباختلاف هاتين الصفتين افترقا في السمع فاعرف ذلك. فيجب أن تعلم أيضا أنَّ السين حرف مؤاخ للصاد، لاشتراكهما في المخرج والصفير والهمس والرخاوة، ولولا الإطباق والاستعلاء اللذين في الصاد – ليسا في السين – لكانت الصاد سينا، وكذلك لولا التسفل والانفتاح اللذين في السين – ليسا في الصاد – لكانت السين صادا. فاعرف من أين اختلف السمع في هذه الحروف والمخرج واحد والصفات متفقة))، هذا التقابل بين الأصوات المتقاربة أو المشتركة في المخرج، ييسر على

المتعلمين إدراك صفات تلك الأصوات واستيعابها كما يساعدهم كثيرا في تحديد تلك الأصوات وتعيينها بدقة ويجنبهم الخلط بين الأصوات، فدارس الأصوات اللغوية ((يحتاج إلى معرفة مكوِّنات الصوت اللغوي وخصائصه حتى يحدد علاقة كل صوت بالأصوات الأخرى، وأثر ذلك على سلوك الصوت في اللغة، وما يطرأ عليه من تغيرات في السلسلة الكلامية)) (الحمد، ٢٠٠٤، ص٧٩).

صفة التفخيم

التفخيم لغة:

أورد لابن منظور (٧١١هـ) ((فخم بمعنى فخم الشيء ويفخم وهو فخم وفخم الرجل فخامة أي ضخم ورجل فخم أي عظيم القدر، والتفخيم: التعظيم وفخم الكلام، عظمه)) (لابن منظور،١٩٩٧، ص٤٥٠).

قال ابن فارس: ((فخم. الفاء، والخاء والميم،أصل صحيح يدل على جزالة وعظم الشيء فيقال منطق الفخم: جزل)) (ابن فارس، ١٩٩١،ص ٤٨١)، فخم الرجل فخامة أي ضخم، والتفخيم ترك الإمالة في الحروف وهو لأهل الحجاز، كما أن الإمالة لبني تميم (زبيدي، دت، ص ١٠)، والتفخيم هو التعظيم والتسمين والاستعلاء وهو ضد الترقيق والتنحيف (بن يعقوب،١٩٨٧، ص ١٤٧٧).

((وروي في حديث أبي هالة: أن النبيﷺ، كان فَخْمًا مُفَخَّمًا أَي عظيمًا مُعَظَّمًا في الصدور والعيون، ولم تكن خِلْقته في جسمه الضخامة، وقيل: الفَخامة في وجهه نُبْلُه وامْتِلاؤه مع الجمال والمهابة)).

و((الفخيمان: الرئيس المعظم الذي يصدر عن رأيه ولا يقطع أمر دونه، الفخامة تعني أيضا الفخامة: في الوجه نبله وامتلاؤه، ورجل فخم كثير لحم الوجنتين، والتفخيم في الحروف ضد الإمالة وألف التفخيم هي التي تجدها بين الألف واللام والواو، كقولك: سلام عليكم، فقام زيد، ومثل هذا كتبوا الصلاة والزكاة والحياة كل ذلك بالواو لأن الألف مالت نحوها)) (بن يعقوب،١٩٨٧، ص ١٤٧٧).

التفخيم اصطلاحا:

هو ((سمن يدخل على صوت الحرف فيمتلئ الفم بصداه، وحروف الاستعلاء كلها مفخمة والإطباق أعلاها)) (بن علي، دت، ص٤٠)، أو هو أن تجعل الحرف في المخرج سمينا وفي الصفة قويا، ومن مرادفات التفخيم مصطلح التغليظ إلا أن التفخيم جاء استعماله في الأغلب في الراءات والتغليظ في بعض اللامات (جمعة، ٢٠٠٠، ص٢٨).

التفخيم عند علماء اللغة:

التفخيم أحد المصطلحات الصوتية التي ظهر استخدامها عند القدماء من علماء اللغة لبيان صفة مجموعة من الأصوات اللغوية.

ورد مصطلح التفخيم عند سيبويه (ت ١٨٠هـ) مرة واحدة عند ذكره الأصوات المستحسنة.

وذكر منها ألف التفخيم تحدث عن الأصوات المطبقة والمستعلية والتي هي أصوات مفخمة والأصوات المنفتحة التي هي أصوات مرققة إذ يقول: ((ومنها المطبقة والمنفتحة فأما المطبقة منها، فالصاد والضاد والظاء والمنفتحة كل ما في ذلك من

الحروف، وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك في مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور في ما بين اللسان والحنك إلى موضع هذه الحروف)).

أمّا المبرد (ت ٢٨٥هـ): فقد اكتفى بذكر الأصوات المطبقة ولم يذكر أصوات الإطباق إلا عند ذكر الأصوات المستعلية يقول: ((والحروف المستعلية: الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف وسميت بالاستعلاء لأن الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك فينطبق الصوت مستعليا ولا ينطبق مع الخاء والغين والقاف إنما يستعلي الصوت غير منطبق بالحنك)) (القيسي، ١٩٩٦، ص ١٢٨).

وأما ابن جني (ت ٣٩٢ هـ)، فيقول: ((للحروف انقسام آخر إلا فالمطبقة أربعة وهي الضاء، الصاد، الطاء والظاء وما سوى إلى الحنك الأعلى، والاستعلاء هو أن تصعد الحنك الأعلى أربعة منها فيها مع استعلائها الإطباق، وأما الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها)) (ابن جني، ٢٠٠٣، ص٦٨).

وعرف الرضي (ت ٦٨٦هـ): الأصوات المطبقة بقوله: ((والمطبقة ما ينطبق معه الحنك على اللسان لأنك ترفع اللسان إليه فيصير الحنك كالطبق على اللسان)) (ابن الحاجب،١٩٨٥، ص٢٦٢)، وعرّف الأصوات المستعلية بقوله: ((ما يرتفع بسببها اللسان وهي المطبقة والخاء والغين المعجمان والقاف لأنه يرتفع اللسان هذه الثلاثة أيضا لكن لا إلى حد انطباق الحنك عليها)).

فالتفخيم عند القدماء وُصِفَ بوضع اللسان في حالة الإطباق والاستعلاء وذلك عن طريق رفع اللسان إلى الحنك الأعلى مطبقا له، فالإطباق والاستعلاء يعدان عملا عضويا تقوم بهما أجهزة النطق لذا يكون التفخيم أثرًا سمعيًّا عنهما.

التفخيم عند علماء التجويد:

أفاد علماء التجويد من جهود القدماء من علماء العربية في وصف الإطباق والاستعلاء وعملوا على إيجاد علاقة بين التفخيم والإطباق والاستعلاء، فالتفخيم عند المرعشي(١١٤٥هـ) عبارة ((عن سمن يدخل على جسم الحرف فيمتلئ الفم بصداه، والتفخيم والتسمين والتجسيم والتغليظ بمعنى واحد، فحروف الاستعلاء كلها مفخمة ولا يجوز تفخيم شيء من حروف الاستعلاء إلا الراء واللام في بعض أحوالها وألف المد فإنها تابعة لما قبلها فإذا وقعت بعد حرف مفخم تفخم، أن التفخيم لازم للاستعلاء فما كان استعلاؤه أبلغ كانت تفخيمه أبلغ فحروف الإطباق أبلغ في التفخيم من باقي حروف الاستعلاء، ولما كانت الصاد والضاد متوسطتين في الإطباق متوسطتين في التفخيم أيضا ولما كانت الظاء المعجمة أضعف حروف الإطباق كان تفخيمها أقل من تفخيم أخواتها،وبالجملة فإن قدر التفخيم على قدر الاستعلاء والإطباق)) (المرعشي، ٢٠٠٨، ص ١٥٥).

وذهب مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) إلى القول بأن حروف التفخيم نفسها حروف الإطباق ويتفخم اللفظ بها بسبب إنطباق الصوت بها بالربح من الحنك، والتفخيم لازم لاسم الله ذكره إذا كان

قبله فتح أو ضم والطاء أمكن في التفخيم من أخواتها (القيسي، ١٩٩٦، ص ١٢٩).

وذهب عبد الوهاب القرطبي (ت٤٦١هـ): إلى بيان وتوضيح العلاقة بين التفخيم والإطباق والاستعلاء، إذ قال: ((... إن التفخيم والاستعلاء والإطباق من وادٍ واحد...)) (الحمد، ٢٠٠٧، ص٢٩٣) وربطوا التفخيم بالاستعلاء والإطباق، ((... فصار التفخيم في كونه انحصار الصوت بين اللسان والحنك نظير الاستعلاء والإطباق)).

والتفخيم عند مكي بن أبي طالب هو تسمين الحرف وأن يمتليء الفم بصداه والحروف المفخمة سبعة أحرف وهي: الطاء، الظاء، الغين، الخاء، الصاد والضاد فهذه السبعة هي حروف الاستعلاء مفخمة بإجماع أئمة الأداء وأئمة اللغة الذين تلقوها من العرب الفصحاء (القيسي، ١٩٩٦، ص ١٢٣)، فـ((التفخيم لازم للاستعلاء فما كان استعلاؤه أبلغ كان تفخيمه أبلغ، فحروف الإطباق أبلغ في التفخيم من باقي حروف الاستعلاء... وبالجملة إنّ قدر التفخيم على قدر الاستعلاء والإطباق)) (الحمد، ٢٠٠٧، ص٢٩٣).

ومن نصوص علماء التجويد نستنتج أنهم ((قد أجمعوا على أن التفخيم عبارة عن سمن يدخل على صوت الحرف فيمتلئ الفم بصداه، ويرادفه كل من التسمين والتجسيم والتغليظ فكلها تؤول إلى دلالة القوة السمعية المغلظة ويناظر التفخيم في آلية إنتاجه كل من الاستعلاء والإطباق الناتجتين من ارتفاع أقصى اللسان إلى الحنك الأعلى ويعتمد في درجته على المقدار الذي يستعلي فيه مؤخرة اللسان فكلما ارتفع مؤخر اللسان أكثر زادت القيمة السمعية للتفخيم، وأكثر الأصوات استعلاء الأصوات المطبقة وعليه فهي أبلغ في التفخيم من الأصوات المستعلية الأخرى)) (القيسي، ١٩٩٦،ص ١٢٣).

التفخيم عند علماء اللغة المحدثين:

لم يختلف ما قاله المحدثون ممن درسوا الأصوات العربية في كلامهم على الإطباق والاستعلاء والتفخيم عمّا جاء به المتقدمون من علماء اللغة وعلماء التجويد المحدثين من دارسي الأصوات العربية لم يجاوزوا في كلامهم، فمثلا معنى التفخيم عند أحمد مختار عمر هو: ((ارتفاع مؤخرة اللسان إلى أعلى قليلا في اتجاه الطبق اللين وتحركه قليلا في اتجاه الحائط الخلفي للحلق، ولذلك يسميه بعضهم التحليق بالنظر إلى الحركة الخلفية للسان)) (عمر، ١٩٩٨،ص ٣٢٦). وجعله الدكتور تمام حسان ظاهرة صوتية تنتج عن حركات عضوية تعمل على تغيير شكل حجرة الرنين بالقدر الذي يُضفي على الصوت هذه القيمة الصوتية المفخمة (حسان، دت، ص ١١٦)، وأشار الدكتور سعد مصلوح إلى ما يحصل نتيجة هذه الحركات بقوله: ((... ويصحبه تمدد في سطح اللسان إلى الجانبين وتراجع لمؤخره)) (مصلوح، ١٩٨٠، ص٢٢٠).

أما الدكتور رمضان عبد التواب فقال: ((الأصوات المفخمة في العربية هي: الصاد، الضاد، الطاء والظاء. فهذه الأصوات وإن كان مخرج الثلاثة الأولى منها من الأسنان واللثة فإن مؤخر اللسان يعمل معها كذلك، فالتفخيم أو الإطباق وصف لصوت لا ينطبق في الطبق وإنما ينطق من

مكان وتصحب ظاهرة عضلية في مؤخر اللسان)) (عبدالتواب، ١٩٨٠، ص ٣٨).

نلحظ الدكتور رمضان عبد التواب يقصر التفخيم على أصوات الإطباق فقط فتكون عنده أربعة.

وعرفه الدكتور إبراهيم أنيس بقوله: ((أن يتخذ اللسان شكلا مقعرا منطبقا على الحنك الأعلى ويرجع إلى الوراء قليلا)) (أنيس، ١٩٧٥، ص ٢٤٩). وقد ((يكون من الظن الشائع بين دارسي علم الأصوات أن التفخيم والإطباق مصطلحان يدلان على مضمون واحد، وهو ظن لا يُثمر شيوعه في إثبات صحته فالفرق بين المصطلحين فرق كبير من الناحية النطقية، فالصوت المطبق هو الذي يتم إنتاجه:

١. بوضع اللسان في نفس موضعه عند نطق نظيره المرقق.
٢. برفع ظهر اللسان باتجاه الطبق حتى يقترب منه جدا، مع ترك منفذ للهواء ضيق في منطقة الطبق نفسها، ولبيان حقيقة هاتين الخطوتين في نطق الصاد مثلا، فإنك تضع أسلة اللسان في محاذاة اللثة المتقدمة، ثم إنك ترفع ظهر اللسان حتى يقترب من منطقة الطبق، هذه حقيقة الصوت المطبق من الناحية النطقية، ولكن هذا ليس شأن كل صوت مفخم فاللام المفخمة التي في مثل لفظ الجلالة (الله) لا يتم إنتاجها برفع اللسان نحو الطبق بل نقيض ذلك هو الذي يحدث فإن ظهر اللسان يتقعر وهكذا، فإن كل صوت مطبق مفخم وليس كل مفخم مطبق)) (إستيتية، ٢٠٠٣، ص ١٤٤).

ومما سبق نلحظ أن التفخيم عند المحدثين هو ارتفاع مؤخرة اللسان إلى أعلاه قليلا، ونلحظ عند كثير من المحدثين ترادف مصطلحي التفخيم والإطباق ومنهم الدكتور تمام حسان والدكتور أحمد مختار عمر وغيرهم، و هناك من جعل فرقا بين المصطلحين فالإطباق وصف عضوي للسان والتفخيم هو الأثر السمعي الناتج عن هذا الإطباق.

المصطلحات المصاحبة لمصطلح التفخيم:

تتجاذب مصطلح التفخيم مصطلحات عديدة: وأولها التفخيم ثم التغليظ (ابن الطحان، ١٩٩٩، ص١٣٨) والتسمين والتجسيم (الحمد، ٢٠١٢، ص١٩٠).

المبحث الثاني:

الصفة الصوتية عند ابن عربي

إذا أنعمنا النظر في مؤلفات الصوفية فإننا سنجد أنهم لم يتبعوا خطى من سبقهم من علماء العربية والتجويد في عرضهم لمصطلحات الصفات الصوتية، الذين دأبوا في تخصيص أبحاث مستقلة في مؤلفاتهم لهذه الصفات؛ بل جاءت هذه المصطلحات عرضا في كتبهم؛ لأن هدفهم الأساس ليس دراسة هذه الصفات من اجل ذاتها وإنما من أجل توظيفها في غاياتهم ودلالاتهم الصوفية.

وعمل ابن عربي على توظيف علم الأصوات في إيضاح وحدة الوجود؛ لأن الأصوات اللغوية عنده وبما تحمله من معان، وبما تنطق من مخارج، وبما تتماز به من صفات تمثل ظاهرة ترتبط بالوجود كله، فصفات الأصوات عنده جزء من الوجود

الذي ترتبط به هذه الأصوات، فقد عوّل كثيرا على المسائل الصوتية (مخارج – صفات) لإرتباطها عنده بأفلاك الحروف ومقاماتها، فلكل حرف من حروف اللغة عنده فلك يدور فيه، وكل فلك يوازي لغويا المخرج الصوتي لهذا الحرف أو مجموعة من الحروف، فهو يربط بين قوة الحرف والمخرج الذي يخرج منه (العنبكي، ٢٠١٣، ص٩١).

والحديث عن الصفة الصوتية عند ابن عربي يستلزم الإشارة إلى بعض خصائص الدرس الصوتي عند ابن عربي التي يمكن إجمالها بالآتي:

١. سار حديث ابن عربي عن مسائل الصوت باتجاهين، **الأول**: محاولته جمع بعض الآراء الصوتية في الباب الثاني من الكتاب إذ تحدث مفصلا عن مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها، وعلاقة كل ذلك بالدلالة التي يريد الوصول إليها من خلال توظيف هذه الجزيئات الصوتية، **والثاني**: إنه بث كثيرًا من التصورات والمعالجات الصوتية لبعض الظواهر في أماكن متفرقة من الكتاب، أينما اقتضت الحاجة إلى ذلك، ويمكن القول إن هذا الاتجاه يمثل بدرجة كبيرة مستوى التطبيق للظاهرة الصوتية.

٢. لم يظهر اهتماما كبيرا للتفريق بين مصطلحي «الحرف»، و«الصوت»، بل كثيرا ما وجدناه يستعملهما استعمالا مترادفا، إلا أننا نجده يستعمل مصطلح الحرف، أو الحروف، أكثر من استعماله مصطلح الصوت أو الأصوات، وما يشفع له الخلط بين المصطلحين هو وجود مثل هذا الأمر في في المدونة اللغوية المختصة، إذ كثر استعمال المصطلحين عند القدماء من أهل اللغة بمعنى واحد (حسان، ١٩٩٤، ص ٥٧)، وربما كان ابن جني أول من فرق بين الصوت والحرف عندما حدد مخرج الحرف بما يقترب من تحديده في الدراسات الصوتية الحديثة (زوين،١٩٨، ص ٦٣).

٣. نظرة ابن عربي خاصة والصوفية بعامة إلى حروف اللغة، وأسرار ودلالات هذه الحروف والتي لايمكن لأحد الوقوف عليها إلا هم. ومنه يقول ابن عربي: ((اعلم وفقنا الله وإياكم أن الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقتنا))، وعلى هذا الأساس((فالحروف أمة لها رسلها التي تقودها في عالم الأسرار الذي يغوص فيه أهل الطريقة، ومن هنا يرى ابن عربي أنّ حروف المعجم إنما سميت بذلك بسبب من النقاط التي أزالت الإعجام عن بعضها، وسميت فيما بهذا الاسم لأنها عجمت على الناظر في معناها))، وهذا خلاف ماقال به أهل اللغة من سبب تسميتها بحروف المعجم، وللحروف عند ابن عربي مدارات وأفلاك ومقامات أي إنها ليست بدرجة واحدة من الاستعمال، لغويا وقرآنيا وصوفيا.

فكل حرف من حروف اللغة كانت له عند الصوفية خصوصية ورمزية خاصة يمكن الاعتماد عليها في توجيه كثير من الظواهر الكونية والقرآنية في وقت واحد (لوري، ٢٠٠٦، ص ٥٧). ولعل ابن عربي كان قد سبق بمحاولات ليست بالقليلة في مضمار

الحديث عن أسرار الحروف ورمزيتها، وما يمكن أن تحيل عليه نطقا وخطا (ابن عربي،١٩٨٣، ص ٩٩) وتتلخص الفكرة العامة التي هي محور الحديث عن الحروف عند ابن عربي في أن مراتب الوجود كلها قد صدرت عن النفس الإلهي، وقد صدرت كل مرتبة عن اسم إلهي خاص، وارتبطت بحرف من حروف اللغة، وجد بدوره عن هذا الاسم الإلهي، ومعنى ذلك أن هناك توازيا بين مراتب الوجود، والأسماء الإلهية من جهة، وبينها وبين حروف اللغة من جهة أخرى، مع ملاحظة أن هذه الحروف هي ليست في جوهرها حروف اللغة التي نتكلمها، بل هي أرواح ملائكة تسمى بأسماء هذه الحروف التي نعرفها، أو قل إن هذه الحروف الإلهية (أرواح الملائكة) هي باطن الأسماء الإلهية، وباطن مراتب الوجود، أما حروف اللغة المنطوقة والمكتوبة فهي تمثل أجساد هذه الحروف وصورها الظاهرة.

وما نجده من تصور تأويلي لحروف اللغة العربية ليس ببعيد عما جاء به تصور علماء اللغة لهذه الحروف، أوبنقيض منه، بل أن كثيرا من تأويل الصوفية للحروف كان منطلقا من جزيئات الدرس الصوتي للوصول إلى وجه من وجوه هذا التأويل هنا أو هناك.

الصفات المخرجية عند ابن عربي

استبين ابن عربي هذه الصفات عند حديثه عن العلم العيسوي – علم الحروف – أي الصفة المخرجية للحروف عند خروج الهواء من الجوف أثناء النطق يقول فيها: ((فإذا انقطع الهواء في طريق خروجه إلى فم الجسد سمي مواضع انقطاعه حروفًا فظهرت أعيان الحروف فلما تألفت ظهرت الحياة الحسية في المعاني)) (ابن عربي،١٩٨٣، ص ١٦٨).

وابن عربي بشرحه هذا متأثرٌ بقول ابن جني في تعريف الصوت إذ عرّفه بقوله: ((الصوت عرض يخرج من النفس مستقيما متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع اينما عرض له حرفا))، فجعل ابن عربي شرطين لتكون الصوت هما: امتداد النفس في آلة النطق وقطع ذلك الإمتداد، فتظهر في موضع القطع الصفة المخرجية للصوت....، وهذا ما ذكره ابن جني من قبل.

التمييز بين الصفات المخرجية والصفات الصوتية

ميّز ابن عربي بين الصفات المخرجية والصفات السمعية والنطقية بقوله: ((فأولها الهاء وآخرها الواو ومنها حروف مفردة المخرج كالحرف المستطيل والمنحرف والمكرر ومنها مشتركة في المخرج كحروف الصفير وإن كان بين المشترك تفاوت فهو قريب بعضها من بعض يجد اللافظ الصحيح اللفظ في حال التلفظ بها الفرق بين الحرفين المشتركين كالطاء والتاء والدال فهذه الثلاثة وإن كانت من مخرج واحد فهو على التفاوت لا على التحقيق ولهذا اختلفت الألقاب عليه لاختلاف أحوالها في المخارج))، ففي قوله: (أولها الهاء وآخرها الواو) نجده قد وافق الخليل (١٧٥هـ) والأصواتيين، إذ بدأ من أعمقها مخرج (الهاء) وانتهى بـ(الواو) أخرجها مخرجا فهي شفويه.

وفي قوله (ومنها حروف مفردة المخرج كالحرف المستطيل والمنحرف والمكرر) يمزج بين الصفة المخرجية والصفة الصوتية، أي إنه قال: حروف مفردة المخرج ولم يقل حروف مفردة الصفة، أي: كان من المفترض به أن يقول مفردة الصفة لأنها ليست صفات وإنما هي صفات صوتية، وأما قوله: (ومنها مشتركة في المخرج كحروف الصفير) فقد أصاب بقوله هذا؛ لأن الصفير صفة مخرجية.

ثم يستمر في نصّه ليبين أن المائز بين الأصوات المشتركة في المخرج الواحد هو الصفة الصوتية، فـ (الطاء والتاء والدال) من مخرج واحد وهو النطع (أي مخرجها من نطع الغار الأعلى) لكن التمييز بينها يكون بواسطة صفاتها الصوتية.

وكأنه بهذا النص يعي جيدا ما ذهب إليه سيبويه عند حديثه عن الإدغام بين التاء والدال ((وهما شديدتان ليس بينهما شيء إلا الجهر والهمس))، وهو لا يعيها فقط بل ويطبقها في نظريته لأسرار الوجود ويربطها مع الصوت الإنساني.

فالصفة عنده هي التي تمايز بين الحروف التي تتعاور على ذات المخرج ويسميها ألقاب الحروف يقول: ((ولهذا أختلفت الألقاب عليه لأختلاف أحوالها في المخارج فيكون للحرف الواحد ألقاب متعددة لدرجات له في النفس عند التكوين منه في مقطع الحرف يمتاز به من الذي يقاربه في المخرج الذي أوجب له أن يقال فيه إنه مشترك كحرف الصاد غير المعجمة مثلًا فإنه من الحروف المهموسة ويشارك الكاف في الهمس وهو من حروف الصفير فهو يشارك الزاي في الصفير وهو من الحروف المطبقة فهو يشارك الطاء في الإطباق وهو من الحروف الرخوة فهو يشارك العين في الرخاوة وهو من الحروف المستعلية فهو يشارك القاف في الأستعلاء فهذا حرف واحد أختلف عليه ألقاب كثيرة لظهوره في مراتب متعددة)).

نلحظ أنّ ابن عربي قد استعمل مصطلح الألقاب للدلالة على الصفات الصوتية ويجعلها هي المائز بين الأصوات التي تتقارب في المخرج، أي قد تشترك مجموعة من الحروف في صفة واحدة كالهمس مثلا فيكون المائز بينها هو المخرج، وقد تشترك مجموعة من الحروف بمخرج واحد فيكون التمييز بينها بواسطة الصفة الصوتية لكل حرف منها.

اختلفت نظرة ابن عربي إلى أصوات اللغة باختلاف المرجعيات التي انطلق منها ولما لهذه المرجعيات من أثر عند ابن عربي في إيجاد تقسيمات متعددة لأصوات اللغة، وهذه المرجعيات هي:

المرجعية الأولى: اللغوية الصوتية

لم يكن ابن عربي يريد تحليل الظاهرة الصوتية لذاتها؛ بل يريد من خلال ذلك الوصول إلى مايريد الوصول إليه من خصوصية في الأداء والفهم، فثمة تداخل حصل بين مرجعياته اللغوية والفكرية صنع رؤية جديدة للأصوات نستطيع تلمسها في كثير من وقفاته وتأملاته التي بثها بين صفحات الكتاب. وقد أنتجت هذه المرجعية تقسيما لأصوات اللغة على وفق مخارجها من جهة، ومقاربة لبعض صفات الحروف التي سجلها أهل الأصوات من قبل، وكيفية توجيه ذلك صوفيا.

المرجعية الثانية: المرجعية الفكرية (الصوفية)

والتي كان لها أثر في تقسيمه حروف اللغة تقسيما جديدا يتلاءم مع منطلقات هذا الفكر ومتبنياته، فكانت العوالم عنده سبعة عوالم وهي تساوي السماوات السبع، وأول هذه التقسيمات التي تعتمد أساسا فكريا تقسيمه الحروف على مراتب أربع وهي مراتب الكون، وهي على النحو الآتي:

١. عالم العظمة أو الجبروت وحروفه: الهاء والهمزة
٢. العالم الأعلى، أو عالم الملكوت وحروفه: الحاء،والخاء، والعين، والغين.
٣. العالم الوسط وحروفه: التاء، والثاء، والجيم، والدال، والذال، والراء، والزاي، والظاء، والكاف، واللام، والنون، والصاد، والضاد، والقاف، والسين، والشين، والياء الصحيحة.
٤. العالم الأسفل،وهو عالم الملك والشهادة،وحروفه: الباء، والميم، والواو الصحيحة.

ثم ينتقل إلى ذكر عوالم أخرى تكونت من امتزاج عالمين مما ذكر قبل قليل وهي:

١. العالم الممتزج بين عالم الشهادة والعالم الوسط، ويمثله حرف الفاء.
٢. العالم الممتزج بين عالم الجبروت الوسط وبين عالم الملكوت، وهو الكاف، والقاف، وهذا الامتزاج امتزاج مرتبة، ويمازجهم في الصفة الروحانية الطاء، والظاء، والصاد والضاد.
٣. عالم الامتزاج بين عالمي الجبروت الأعظم، وبين عالم الملكوت، وهو الحاء المهملة.

ثم يعرج على ذكر عالم خاص وهو العالم الذي يشبه العالم منا، الذين يتصفون بالدخول ولا بالخروج عنا، وهو الألف، والياء والواو المعتلتان.

والحقيقة أن هذا التقسيم مرتبط عند ابن عربي بالكشف الصوفي الذي لا يتأتى لأي واحد من المتأملين في طبيعة الحروف وأسرارها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ تقسيم ابن عربي للحروف على وفق هذه العوالم يكاد يتطابق مع التقسيم المخرجي للأصوات عند الخليل وسيبويه فعالم الجبروت مثّلَ المخرج الحنجري وعالم الملكوت مثّلَ مخرج الحنجرة وعالم الوسط مثّلَ الأصوات المحصورة بين أدنى الحلق وباطن الشفتين وهذه المنطقة تمثل المنطقة الوسطى من آلة النطق وعالم الشهادة مثّلَ المخرج الشفوي، اما المخرج الشفوي الأسناني المتمثل بالفاء فقد مثّلَه العالم الممتزج بين عالم الوسط والشهادة.

المرجعية الثالثة: المرجعية الدينية المتمثلة بالقرآن

وهي التي أفضت إلى تقسيم جديد لحروف اللغة على طبقات مختلفة فهي مرجعيته الدينية التي يمثلها القرآن الكريم الذي يعد الرافد الأساس الذي ينهل منه ابن عربي، ويستمد منه مقومات القوة والاستدلال لكثير مما يقول. وتنقسم الحروف على وفق الاستعمال القرآني لها من زاوية أو أخرى سياتي تفصيلها لاحقا على عوام وخواص، وهذه الخواص تنقسم على خمس طبقات تبدأ بأقلها خصوصية وتتدرج حتى نصل إلى أعلى طبقة، ولكل طبقة من هذه الطبقات مجموعة من الحروف، ولوجود هذه الحروف فيها دون غيرها تعليل مرتبط بالاستعمال القرآني لها في وجه من الوجوه.

مخارج أصوات التفخيم وصفاتها

مفهوم المخرج

لغة: جاء في اللسان: الخروج نقيض الدخول، خرج يخرج خروجا مخرجا فهو خارج وخروج وخراج، وقد أخرجه وخرج به، والمخرج هو المصدر والموقع.

اصطلاحا: هو المنطقة التي يتم فيها اعتراض مجرى الهواء والتي يصدر الصوت فيها (الصيغ،٢٠٠، ص٥٠).

ويعد المخرج من مصطلحات الخليل فنجده قد استعمل هذا المصطلح محددا خروج الأصوات وقد استعمل لفظا آخر أدى به معنى المخرج وهو « المبدأ « فكلمة المبدأ في حديثه حملت معنى المخرج، وقد تبعه في استعمال مصطلح المخرج سيبويه واستعمله معظم العلماء الذين أتوا بعدهما (الصيغ،٢٠٠، ص ٥١).

أولا: صوت الصاد المخرج والصفات

في اللغة ((الصاد: الحرف الرابع عشر من حروف الهجاء وهو صوت أسناني، احتكاكي/ مستمر «رخو»، مهموس، مفخم «مطبق»)) (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣، ص٧٣٥).

ورد حرف الصاد في القرآن الكريم ثلاث مرات بصورة مفردة ضمن الحروف المعجزة في أوائل السور بلفظ: ﴿**ص**﴾، ﴿**المص**﴾، ﴿**كهيعص**﴾، كما في قوله تعالى: ﴿**ص *وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾.

ذكر سيبويه أن مخرج صوت الصاد من طرف اللسان وفويق الثنايا، ففي حرف الصاد يرتفع اللسان إلى الحنك الأعلى حتى يكاد ينطبق معه، وله ست صفات وهي: (الهمس، الرخاوة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والصفير)، (وهو عند المحدثين صوت لثوي احتكاكي مفخم (بشر، د ت، ص ٢٥٠).

أمّا عند الصوفية فنجد أن ابن عربي قد ذكر بعض خصائصه من الناحية الصوفية بقوله: ((الصاد: من عالم الغيب والجبروت. مخرجه: ما بين طرفي اللسان وفويق الثنايا السفلى. عدده: ستون عندنا، وتسعون عند أهل الأنوار. بسائطه: الألف والدال والهمزة واللام والفاء، فلكه: الأول يتميز: في الخاصة، وخاصة الخاصة. له: أول الطريق. مرتبته: الخامسة. سلطانه: في البهائم. طبعه: الحرارة والرطوبة. عنصره: الهواء. يوجد عنه ما يشاكل طبعه. حركته: ممتزجة مجهولة. له: الأعراف.. خالص كامل مثنى مؤنس. له من الحروف الألف والدال... الصاد حرف من حروف الصدق والصون والصورة، وهو كروي الشكل، قابل لجميع الأشكال، فيه أسرار عجيبة... حرف شريف عظيم، أقسم عند ذكره بمقام جوامع الكلم، وهو المشهد المحمدي في أوج الشرف بلسان التمجيد))، ونجده في موضع آخر يوظف البحث الصوتي لتقريب ما يذهب اليه من الرأي ويدلل عليه، فيذكر طبيعة خروج النفس وتكوين الحروف. ولاسيما مسالة تعدد الصفات للحرف الواحد مع وحدة ذاته، يقول: ((باب النفس - بفتح الفاء- والشعر من الكلام فهو من باب الأنفاس فثم أنفاس يخرج معها تحقيق المعاني على ما هي عليه في تركيب بعضها مع بعض وثم أنفاس

بالعكس فلنرجع إلى النفس الرحماني الذي ظهر عنه حروف الكائنات وكلمات العالم على مراتب مخارج الحروف من نفس المتنفس الإنساني الذي هو أكمل النشآت كلها في العالم وهي ثمانية وعشرون حرفًا لكل حرف اسم عينه المقطع مقطع نفسه فأولها الهاء وآخرها الواو ومنها حروف مفردة المخرج كالحرف المستطيل والمنحرف والمكرر ومنها مشتركة في المخرج كحروف الصفير وإن كان بين المشترك تفاوت فهو قريب بعضها من بعض يجد اللافظ الصحيح اللفظ في حال التلفظ بها الفرق بين الحرفين المشتركين كالطاء والتاء والدال فهذه الثلاثة وأن كانت من مخرج واحد فهو على التفاوت لا على التحقيق ولهذا اختلفت الألقاب عليه اختلاف أحوالها في المخارج فيكون للحرف الواحد ألقاب متعددة لدرجات له في النفس عند التكوين منه في مقطع الحرف يمتاز به عن الذي يقاربه في المخرج الذي أوجب له أن يقال فيه أنه مشترك كحرف الصاد غير المعجمة مثلًا فإنه من الحروف المهموسة ويشارك الكاف في الهمس وهو من حروف الصفير فهو يشارك الزاي في الصفير وهو من الحروف المطبقة فهو يشارك الطاء في الأطباق وهو من الحروف الرخوة فهو يشارك العين في الرخاوة وهو من الحروف المستعلية فهو يشارك القاف في الاستعلاء فهذا حرف واحد أختلف عليه ألقاب كثيرة لظهوره في مراتب متعددة قابل بذاته كل مرتبة صالح لها فاختلفت الاعتبارات فاختلفت الأسماء)) ومنه قوله: ((والمعلوم أن الصاد من «المص» ومن «كهيعص» ومن «ص» ليس كل واحد منهن عين الآخر منهن ويختلف باختلاف أحكام السورة وأحوالها ومنازلها وهكذا جميع هذه الحروف على هذه المرتبة وهذه تعمها لفظًا وخطًا))، وهو ((باعتبار التصوف: هو صون الواردات عند هجوم الشبهات)). وقال الشيخ عبد العزيز الدباغ: ((الصاد: فإن كانت مفتوحة: فهي جميع غبار الأرض في الموقف بين يدي الله، وإن كانت مكسورة: فهي الأرضون السبع، وإن كانت مضمومة: فهي جميع نباتاتها. هذا إذا كانت الصاد مرققة، فإن كانت مفخمة، فالمفتوحة: هي الأرض التي غضب الله عليها أو التي لا نبات فيها، والمكسورة الذات: التي لا نبات فيها، أو الذات التي لا خير فيها، والمضمومة: ما يلحقنا منه ضرر من المعنيين السابقين... ل و ات المكية: ١/ ٧١ بن عربي تناوله بالقول: ((الصاد بالفتح: إشارة إلى الأرض لها، وما عليها مقدار فرسخ. وبالضم جميع الأرضين وما هو تراب. وبالكسر للنبات الذي على وجه الأرض. وإذا كانت مفخمة: تكون الإشارة إلى ما على هؤلاء بغضب من الله)) (المبارك، ١٩٨٨، ص ١٥٥).

وذهب الدكتور عبد الحميد صالح حمدان إلى القول: ((حرف الصاد: وهو حرف نوراني وسر صمداني، والاسم منه صمد)).

أما الباحث محمد غازي عرابي فيقول: ((الصاد: هو صمود علم العارف في وجه التقلبات)) (عرابي، ١٩٨٥، ص ٩٥).

ويوازي ابن عربي بين مراتب الوجود مع الاسماء الالهية مع حروف اللغة، أي إن الأسماء الإلهية انما هي ثمانية وعشرون اسما وهي توازي ثماني وعشرين

مرتبة وجودية والتي بدورها توازي ثمانية وعشرين حرفا هي حروف اللغة، والتي هي في حقيقتها ليست حروف اللغة الانسانية، وإنما هي أرواح وملائكة تسمى بأسماء هذه الحروف، وهذه الحروف الملائكة الأرواح هي التي تحفظ الأسماء الإلهية وتحفظ مراتب الوجود المرتبطة بها، فحروف اللغة الإنسانية هي ظاهر تمثل أجساد الحروف الملائكة التي هي باطن لأسماء الهية ومراتب وجودية (ابن عربي، ٢٠١٨، ص ٢٤).

ويقع حرف الصاد عند ابن عربي في عالم الوسط الذي يقابل عند اللغويين المنطقة الوسطى من آلة النطق، أي: المنطقة الواقعة بين أدنى الحلق وباطن الشفة.

ثانيا: صوت الضاد المخرج والصفة

في اللغة ((الضاد: الحرف الخامس عشر من حروف الهجاء... وصفه القدماء بأنه صوت أسناني «يتم نطقه بأول حافة اللسان وما يليه من الأضراس» رخو «احتكاكي/ مستمر»، مجهور مطبق «مفخم مستعل» منحرف «جانبي». وقد تكتمل شدته في بعض البلاد العربية فيصبح مفخم الدال، كما تكتمل رخاوته في بعض آخر فيصبح كالظاء)) (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣، ص٧٦١).

أما عند اللغويين فحدد سيبويه مخرج الضاد بأنه: ((من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس)) (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣، ص٧٦١)، وأضاف ابن جني: ((إلا إنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر))، ويرتفع اللسان عند النطق به إلى الحنك الأعلى حتى ينطبق معه، وله ست صفات وهي: (الجهر، الرخاوة، الاستعلاء، الإطباق،الإصمات، الاستطالة).

أمّا عند الصوفية فنجد عند ابن عربي ((الضاد المعجمة من حروف الشهادة والجبروت ومخرجه من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس عدده تسعون عندنا وعند أهل الأنوار ثمانمائة بسائطه الألف والدال اليابسة والهمزة واللام والفاء فلكه الثاني حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة يتميز في العامة له وسط الطريق مرتبته الخامسة ظهور سلطانه في البهائم طبعه البرودة والرطوبة عنصره الماء يوجد عنه ما كان باردًا رطبًا حركته ممتزجة له الخلق والأحوال والكرامات خالص كامل مثنى مؤنس علامته الفردانية له من الحروف الألف والدال)). وهو يقع في عالم الوسط أيضا.

الشيخ شهاب الدين السهروردي يقول: ((ض – باعتبار التصوف –: ضالة البدن لتجرع كاسات المحن)) (بن ابي الخير، ٣١٣، ص٥).

الشيخ عبد العزيز الدباغ ((الضاد إذا كانت مفتوحة: عبارة عن الصحة وعدم البلاء. وإن كانت مضمومة: فهي إشارة إلى الشيء الذي لا نور فيه أو لا ظلام فيه.. وإن كانت مكسورة: فهي عبارة عن الخضوع)) (المبارك، ١٩٨٨، ص ١٥٥).

الدكتور عبد الحميد صالح حمدان يقول: ((حرف الضاد: وهو حرف ظلماني وسر جسماني، والاسم منه ضار)) (حمدان، ١٩٩٠، ص٤٤).

ثالثا: صوت الطاء المخرج والصفة

في اللغة ((الطاء: الحرف السادس عشر من حروف الهجاء، وهو صوت أسناني، انفجاري «شديد»، مهموس، مفخم «مطبق»)) (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣، ص٧٨٣).

أما في القرآن الكريم فقدورد حرف الطاء في القرآن الكريم ثلاث مرات بصورة مفردة ضمن الحروف المعجزة في أوائل السور بلفظ: طس، طسم، كما في قوله تعالى: ﴿**طس* تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾.

وعند اللغويين نجده عند سيبويه مخرجه مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا، ويرتفع اللسان عند النطق بها إلى الحنك الأعلى وهو صوت مجهور – ورخو ومستفل ومنطبق ومصمت ومقلقل. وعده بعض المحدثين صوتا أسنانيا لثويا شديدا أو مهموسا (بشر، د ت، ص ٢٥٠).

أما في اصطلاح الصوفيين فقد ذكر ابن عربي بعض خصائص الطاء الصوفية بقوله: ((الطاء: من عالم الملك والجبروت، مخرجه: من طرف اللسان وأصول الثنايا عدده: تسعه، بسائطه: الألف، والهمزة، واللام، والميم، والزاي، والهاء.

فلكاه: الثاني... يتميز: في الخاصة، وخاصة الخاصة. وله: غاية الطريق، مرتبته: السابعة، سلطانه: في الجماد، طبع: البرودة والرطوبة. عنصره: الماء، يوجد عنه ما يشاكل طبع. حركته: مستقيمة عند أهل الأنوار، ومعوجة عند أهل الأسرار وعند أهل التحقيق وعندنا معة وممتزجة. له: الأعراف. خالص، كامل، مثنى، مؤنس. له من الحروف: الألف والهمزة)). وموقعه في عوالم الأصوات عند ابن عربي يقع في عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الوسط وبين عالم الملكوت.

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي: ((ط باعتبار التصوف: طرح النفس في العبودية وتعلق القلب بالربوبية))، وعدّه الحافظ رجب البرسي: ((هو طيار في جميع العوالم، وسره في المبادئ والأوليات)) (البرسي، د.ت، ص ٢٤). أو: ((هو حرف نوراني وسر عرشي، الاسم منه طاهر)). وقال عنه محمد غازي عرابي: ((الطاء: لطهارة السيرة الإنسانية وصلاحها لتنفيل الواردات الإلهية)).

رابعا: صوت الظاء المخرج والصفة

ففي اللغة ((الظاء: الحرف السابع عشر من حروف الهجاء، وهو صوت بين أسناني، احتكاكي/ مستمر «رخو»، مجهور، مفخم «مطبق»)) (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٣، ص٨٠٨).

أما عند اللغويين فمخرجها عند سيبويه مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، وله صفة الجهر والرخاوة والإطباق، وعند المحدثين صوت أسناني لثوي شديد ومهموس ومفخم أو مطبق (أنيس، ١٩٧٥، ص ٢٤٩). هو من الحروف التي يرتفع اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق به.

أما عند الصوفيين، فنجد أن ابن عربي قد تطرق له بذكر بعض خصائصه من الناحية الصوفية بقوله: ((الظاء: من عالم الشهادة والجبروت والقهر. مخرجه:

ما بين طرفي اللسان وأطراف الثنايا. عدده: ثمانية وثمانمائة عندنا، وعند أهل الأنوار تسعمائة. بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والهاء والميم والزاي. فلكه: الأول، سنيه: مذكورة. يتميز: في خلاصة خاصية الخاصة. له: غاية الطريق ومرتبته: السابعة، سلطانه: في الجماد، طبع دائرته: بارد رطب، وقائمته حارة رطبة، فله الحرارة والبرودة والرطوبة، عنصره الأعظم: الماء والأقل الهواء... حركته: ممتزجة. له: الخلق والأحوال والكرامات، ممتزج كامل، مثنى مؤنس. له الذات. له من الحروف: الألف والهمزة ومن الأسماء كما تقدم))، وموقعه في عوالم الأصوات عند ابن عربي في عالم الوسط.

وذكره الشيخ شهاب الدين السهروردي بقوله: ((باعتبار التصوف: ظهور السر والفرح عند صدمة الكروب والقرح))، وعنه قال الدكتور عبد الحميد صالح حمدان: ((الظاء: وهو حرف ظلماني وسر جسماني، والاسم منه ظاهر)).

الخاتمة

أظهر البحث مجموعة من النتائج تتلخص بما يلي:

١. استبين ابن عربي الصفة الصوتية عند حديثه عن العلم العيسوي (علم الحروف).
٢. ميّز ابن عربي بين الصفة والمخرج في حديثه عن الحروف.
٣. إنّ المائز بين الحروف التي تشترك بمخرج واحد عند ابن عربي هو الصفة الصوتية.
٤. انصبّ عمل ابن عربي على توظيف علم الأصوات من أجل إيضاح وحدة الوجود؛ لأنّ الأصوات اللغوية مرتبطة عنده بالوجود كله.
٥. نحا حديث ابن عربي عن مسائل الصوت باتجاهين، الأول: محاولة جمع الآراء الصوتية في الباب الثاني من كتابه، والثاني: بث الكثير من التصورات والمعالجات الصوتية لبعض الظواهر في أماكن متفرقة من الكتاب.
٦. لم نجد عنده أهمية كبيرة في التفريق بين الصوت والحرف.
٧. وظّف ابن عربي البحث الصوتي لتقريب ما يذهب إليه من الرأي ويدلل عليه، فيذكر طبيعة خروج النفس وتكوين الحروف، لاسيما فيما يتعلق بمسألة تعدد صفات الحرف الواحد مع وحدة ذاته.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الطحّان، ابن الطحان السماتي (ت٥٦١هـ) الأنباء في تجويد القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن، رسالة منشورة في مجلة الأحمدية العدد ٠٤ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، لسان العرب، ط ٤، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ابو زيد، نصر حامد ابو زيد، فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند ابن عربي، ط١، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٣. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين (ت: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧ م.

- الاستربادي، محمد بن الحسن الاستربادي(ت ٦٨٨هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد الزفزاف وآخرون، دار. الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥ م.
- إستيتية، سمير شريف إستيتية، الأصوات اللغوية رؤية عضوية وتطبيقية وفزيائية، ط ٤، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣ م.
- الأسدي، حسن عبد الغني الأسدي، مسارات الدرس الصوتي عند رضي الدين الأستراباذي مقاربة لسانية، ط١، دار المدينة الفاضلة، بغداد، ٢٠١٤ م.
- أنيس، إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ط ٥، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧٥م.
- برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تحقيق: رمضان عبد التواب ط ٢، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
- البرسي، الحافظ رجب البرسي، مشارق أنوار اليقين في أسرار امير المؤمنين، دار الاندلس بيروت ط١٠.
- بشر، كمال بشر، علم الأصوات، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- بصفر، عبد الله بن علي بصفر، التجويد الميسر، رابطة العالم الإسلامي، المحقق: محمد حسن العطار، ط١، الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم قسم البحوث والمناهج
- بن عربي، محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٩.
- بن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، مقاييس اللغة،ط ٤، دار الجبل، بيروت، ١٩٩١ م.
- الجريسي، محمد مكي نصر الجريسي ت (١٣٢٢ هـ)، نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد، ط ١، ضبط وتصحيح وتخريج: عبد الله محمود محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣ م.
- جمعة، عماد علي جمعة أحكام التلاوة والتجويد الميسرة ط ٤،مكتبة الملك، الرياض، ٢٠٠٠ م.
- حسان، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط١، دار الثقافة، ١٩٩٤.
- حسان، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠.
- الحمد، سالم قدوري الحمد، التفخيم في أصوات العربية، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلد ١٩، العدد ٩، ٢٠١٢.
- الحمد، غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط٢، دار عمار، بغداد، ٢٠٠٧.
- الحمد، غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، ط١، دار عمار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤.
- حمدان، عبد الحميد صالح حمدان، علم الحروف وأقطابه، ط١، مكتبة مدبولي القاهرة ط١، ١٩٩٠.
- الداني، لابي سعيد الداني، التحديد في الإتقان والتجويد، تحقيق: غانم قدوري الحمد،ط١ دار عمار، الأردن، ٢٠٠٠.
- الزبيدي، محمد بن مرتضى الزبيدي، تاج العروس، تحقيق: نواف الجراح – سمير شمس، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠١١.
- زوين، علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية بغداد،

ط١، ١٩٨٦.

- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي الملقب سيبويه (ت ١٨٠هـ) الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، قاهرة.
- الصيغ، عبدالعزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ط ١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
- الطرفي، فراس عودة داخل الطرفي، البحث الصوتي عند ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) في كتابه البديع في علم العربية، رسالة ماجستير، جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الإنسانية، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٧ م.
- عبدالتواب، رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي،ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- عرابي، محمد غازي عرابي، النصوص في مصطلحات التصوف، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.
- علي، فتحية حمو علي، ظاهرة التفخيم الصوتي في الأداء القرآني، جامعة أحمد دراية – ادرار كلية الاداب واللغات، جزائر، ٢٠١٩.
- عمر، أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، قاهرة، ١٩٩٨ م.
- العنبكي، عقيل عكموش العنبكي، المقاربة اللغوية للخطاب الصوفي الفتوحات المكية انموذجا، الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١٣.
- عومر، خديجة السيد عومر، تأويل النص القرآني عند ابن عربي من خلال تفسيره، اطروحة دكتوراه جامعة وعران، الجزائر، ٢٠١٨.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- القاري، علي بن سلطان محمد القاري، المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية،الطبعة الاخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، قاهرة، ١٩٤٨.
- القرطبي، عبدالوهاب بن محمد القرطبي، الموضح في التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمود، ط ٤، دار عمان، عمان ٢٠٠٠ م.
- القيسي، أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي،الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق أحمد حسان فرحات، ط ٣، دار عمار، عمان، ١٩٩٦ م.
- لوري، بيير لوري، علم الحروف في الاسلام، ترجمة: داليا الطوخي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.
- المبارك، الشيخ احمد المبارك، الابريز، المكتبة الوطنية بغداد ١٩٨٨.
- مخطوطة المقامات الأربعين، الشيخ ابي سعيد بن ابي الخير، دار المخطوطات العرقية، مخطوطة برقم (٣١٣).
- المرادي، الحسن بن قاسم المرادي، المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: جمال السيد رفاعي، صححه وقدم له: الشيخ محمود حافظ برانق، د. حامد بن خير الله، ط١، مكتبة أولاد الشيخ (١٢٨٤هـ).
- المرعشي، محمد بن أبي بكر المرعشي، جهد المقل في التجويد، تحقيق: سالم قدوري الحمد، ط ٢،دار عمار، عمان، ٢٠٠٨ م.

- مصلوح، سعد مصلوح، دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الاساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ط١، ٢٠٠٣.
- الموصلي، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الخصائص،تحقيق: محمد علي نجار (القاهرة:دار الكتب المصرية، ٢٠٠٣ م).